الشوق الى الأرض الطيبة

قصة بقلم محمود الريماوي

نزع أبو العبد كوفيته وعقاله عن رأسه الاشيب ، وألقى بهما بجانبه على البطانية المتسخة .

أطلق تنهيدة عميقة ، فقد كان الحر لا يطاق وليس يجرؤ على خلع ثياب الوكالة عن جسده النحيل ، لان الخيمة تفتقر الى باب ، وقبالتهم بنات وحريم .

فك أزرار حذائه الضخم وطوح به الى الزاوية ، ثم مدد رجليه باعياء واضح ووضع تحت رأسه معطفا عتيقا كومه كيفما اتفق ، واعتمد على راحة يده المتشققة الجافة ، في محاولة لا غنى عنها للراحة من تعب الساعات العشر التي أنفقها في أعمال البناء في الجبل المجاور .

أم العبد كانت عند جيرانهم في الخيمة المحاذية ، تتحدث مع جاراتها عن انقطاع الماء الدائم ، والعدس المغشوش ، والعمر الذي مضى منه أكثر مما بقي . ابنته خديجة ـ قليلة الحظ ـ تتعلم في شغل الخياطة . أما حسن الشاب اليافع ابن العشرين عاما فقد كان وقتها يشرب الشاي ويدخن ، وينتصر وينهزم في لعبة الورق ، ومما يجدر ذكره انه تعلم شتم الدين والناس بدون سبب . هذا وقد يكون في مكان آخر ، من يدري .. تأوه أبو العبد ، ومسح قطرة عرق كانت تتأرجح على أرنبة أنفه . تناهت الى أذنيه ـ الحافلتين بالشعر الكثيف ـ أغنية عن القدس ، من مذياع يبدو أن بطارياته جديدة ، ولم يستطع عندها أن يتعرف على حقيقة مشاعره فانقلب الى الخاصرة الاخرى ، وأحس بوجع كالطرقة يضرب جدران رأسه وقال لنفسه : يلعنها من حياة.. وشعر بالنعاس يتسلل الى عينيه ، ولم يكن هناك ما يدعو للمقاومة فاستسلم له بكل كيانه ، وبالمناسبة فانه منذ نزح من مخيم النويعمة ـ الذي مكث فيه عشرين عاما عريضة ، أنجب في أوائلها حسن ، وبنى دارا من ثلاث غرف غرس في باحتها دالية وشجرة حور ـ من يومها وهو يحن دائما الى النوم ، وقد قال له بعض العارفين الذين يكثرون في حلقته المسائية ، ان هذا مرض خبيث لا يحسد عليه ، وان ضحايا هذا الداء كثيرا ما ينامون نومهم الاخير وهم يتصورون انهم ينامون مجرد نوم هادىء عادي . لكن « ابو العبد » لا يكترث .

رويدا رويدا كان وعيه ينحسر ازاء مد النعاس الذي يجتاح أهدابه ، فيما كان هواء لافح مغبر يمارس نفوذه على أشياء خيمته ويغمر وجهه المكدود بعرق دبق غزير .

جلبة الاولاد في الخارج يسمعها كالطنين . الهواء الذي يمر على وجهه يجعله يتخيل انه في رحلة مضنية لا تنتهي ، ويظل في حالة سفر دون وصول . راحة يده تحت رأسه أصبحت مبتلة ، سحبها ، وكان المعطف خشنا ، كثيف الوبر كما لو انه ينام على شوك ، وحيدا في أرض مهجورة مقطوعة الاسباب بالعالم .

الجبنة والتبغ لم يتركا في فمه ماء ليبتلع ريقه . نهض بتكاسل كي يبحث عن ابريق الماء ، ويشرب . تطلع حواليه برجاء وخشي ألا يعثر عليه ، وأخيرا وجده عند مدخل الخيمة . كان الماء ساخنا وفي القعر . جعل الابريق في وضع عمودي على فمه ، وامتص بنهم القطرات البخيلة . أصطكت بأسنانه حصوة صغيرة عرقلت استمتاعه ، بصقها ، ثم بصق مرة أخرى بصقة مستقلة ، بيد أن طعم التراب ظل في فمه . عاد ليرتمي مرة أخرى على البطانية ، وكأنه يود أن يهرب من شيء مجهول يتربص به . صمم أن ينام نوما طويلا حتى لو أدى ذلك الى تحقيق نبوءة العارفين في حلقته المسائية . لكن التعب الذي يسري في رجليه ، كان يعاكس رغبته . أخذ يجعل رجليه في أكثر من وضع كي يبدد التعب ، ولم يفلح في ذلك حتى ضاق صدره وضجر . تأكد أن جهوده لا تثمر وسيظل معلقا هكذا بين أرض اليقظة وسماء النوم ، فاكتأب ، وخشي أن يكون ذلك مقدمة لمرض ما يحرمه من نصف الدينار الذي يتقاضاه من صاحب البناية في الجبل المجاور. لعن ابنه حسن الشاب الفالت الذي لا يبحث عن عمل ، ويظل يتغيب عنهم . أما مصطفى الذي يشتغل في الكويت من خمس سنوات فانه لا يلتفت اليهم الا في العيدين ، اذ يبعث ورقة خضراء يستلمها حسن ويتصرف بها على مزاجه . ثم يقول اللعين انه سيتزوج وخديجة لما تنستر بعد .

خارج خيمته يبدو أن الشمس توشك على اتمام رحلتها اليومية دون أن تتيسر له ساعة أو ساعتان من الاغفاء . كان ذهنه متعبا ومختلطا من فرط التفكير والتذكر ، وقد وصل الان ذروة الاشتباك فلم يعد يفكر بشيء أو تخطر على ذهنه ذكرى ـ هش لهذه الحالة ، اذ انها غالبا ما تكون توطئة للتوغل في غابة النوم والنسيان .

لم تمض لحظات حتى راح أبو العبد ومعه فصول عمره الحزينة في نوم عميق ، لعل من أوضح مظاهره شخيره الحاد المتقطع ، كصوت حيوان غب الذبح ، بينما كانت ذبابة مشاغبة ، كبيرة الحجم وملحاحة ، تتنقل على معالم وجهه ، فتجعل منظره لمن يتفرس به غير صحي على الاطلاق .

الطريق من مخيم النويعمة الى الضفة الشرقية للنهر طويلة وشائكة . تبدو العملية أكثر عناء ومشقة اذا كانت ستسلكها أسرة كاملة مشيا على الاقدام ، وفي منتصف الصيف ، واحتمال الموت قائم أكثر من الحياة . لكنه قطعها ذات يوم مع زوجته وأبنائه . فقد كان هناك ما يدفعهم من الخلف الى الخروج . أم العبد أغاظته في الطريق ، تريد أن ترتاح ساعة كل نصف ساعة والمسافة بعيدة ، والطائرات لا ترحم ، والذهول يجمد الاعصاب ويستفزها في آن .

أريحا كانت تغوص وراءهم في طوفان من الدخان ، وقلبه يفيض وأنفاسه تكاد تتقطع .

يا الله ما أقساها من دنيا ، كيف يحدث ذلك ؟! أم العبد تجرجر الخمسين عاما وأكثر من تساؤل استنكاري مبهم يقفز من عينيها . محمد كان نشيطا ومتوترا ، وقد تردد كثيرا في أن يسأل والده : لماذا لا نبقى مثل غيرنا الذين بقوا ؟ خديجة خائفة ، البطانيات على ظهرها ثقيلة . قالت لامها : نسيت الراديو مفتوحا . فالجمتها امها بنظرة غضب . وعادت تسأل : هل خرج دار أبو حليمة ؟ غير ان ثقل البطانيات أرغمها على الانتباه . أبو العبد رغم انه كان غير مصدق لما يحدث . لكنه بدا وهو يفذ سيره كما لو انه كان يتوقع ذلك .

الجنود ينسربون من حولهم بانفعال بالغ . في الحرب لا يقوم العقل بكامل مهماته السابقة . بعضهم يتجه الى النهر ، والبعض الآخر يقصد الاتجاه الشرقي . في الحرب يبدو الموت والحياة جد مختلفين وقد يختلطان . المعركة لم تكن قد انتهت بعد واحتمال الموت والحياة لم يزل مثارا ، وله مذاق مميز في الفم .

أبو العبد كان يخشى أن تنفرط الاسرة . أن يفقد آخر العنقود حسن . أو تلك الحزينة خديجة . أو تلك المراة ، رفيقته التي احبها ذات يوم في بيت دجن . في الـ ٤٨ أجهزت رصاصة طائشة على

شباب بكره العبد ، وكم مضى من العمر وهو يتحسر عليه ، وكم عذبته الكوابيس واستنفرت الهواجس أعصابه . عند مشارف صويلح أقلتهم سيارة تراكتور ، فقد كان حظه كبيرا لان سائقها كان جارا لهم في المخيم . عندما صعد الى الناقلة الخلفية ـ وقد كاد يسقط لاشتباك سرواله بحافة الباب ، جاءته خاطرة مريرة ، اذ تذكر الفجر الذين لا يقيمون ، وانتابه تعاطف غريزي معهم ، وخشيي كثيرا أن يلتقي مصيره بمصيرهم في النهاية ، فأشرقت عيونه بدموع سخينة غالب نفسه وهو يخفيها عن عيون حسن . كان جسده يتمايل من اثر السرعة، والزحام وعدم الارتكاز ، والسقوط والنهوض يتناوبانه .

ظلت نظراته مرشوقة الى الغرب ، وسيارة التراكتور تنأى به بعيدا وتنهب المسافات . كان وجدانه يقطر حقدا مفجوعا على الذين يخلعون الاشجار . أطلت جبال عمان ، وأخذ يتوقع كيف يكون لقياه باقربائه فأحس بالخجل والحسرة . عندما توقفت السيارة هبط الشارع وهو يتفسخ من الارهاق . افترش أقرب رصيف ومنحه ظل احدى البنايات الشاهقة راحة كبيرة ممزوجة بالتشوق اتى شيء غريب ، وكان اليأس يهيىء له انه لن يلتقيه .. لا أحد يخبر دقائق الايام السوداء مثل أبو العبد . ولا أحد يدري بفعل رياح الخماسين مثل أبو العبد ، وكيف جعلته في نهاية المطاف لا يملك غير خيمة زرقاء ضيقة ، وثيقة الصلة بالطبيعة ، وحياة التشرد والارتحال .

ـ حسن لم يأت حتى الآن .

ـ زمانه قادم ، ثم من قال لك ان معه ساعة .

ـ قد يكون ذهب الى السينما ، أو يتسكع في شوارع المدينة .

ـ لكنه صمم أن يأتي . كان أكثرنا اصرارا على اللقاء ، كي نخطط لشيء ما .

ـ قد يكون في الخيمة التي بلون خيام السياح .

ـ ذهبت اليه بنفسي . لم يكن ثمة أحد غير والده العجوز يغط في النوم .

ـ يا جماعة لا داعي للحسابات والتنبؤات ، الغائب عذره معه .

ـ لكن يهمنا معرفة السبب ، قد يكون بحاجة الينا .

ـ صحيح والشاب كثير المشاكل ، لكن قد يكون أضاع الطريق .

ـ لا أحد يعرف الطريق مثل حسن .

ـ الوقت يمر سريعا . مضى نصف ساعة وقلق مبهم يساورني الآن ..

ـ هات سيجارة لهذه الولعة يا خالد ، سأنشف ريقه عندما يجيء ..

ـ يا الهي متى يجيء ؟ أين يكون ؟

ـ كل شيء محتمل الحدوث ، من يدري !

ـ أنا أقول ، قد يكون ينتظرنا هو الآن .

ـ يا جماعة .. حسن . لا بد ان حسن ...

ـ حلمت أن حسن ...

أحسوا انهم يهدرون الوقت بلا جدوى . اتفقوا بدون مقدمات على ان الوقت ضيق ولا يتسع للثرثرة . انفض ثلاثتهم وكانهم ينفذون قرارا مسبقا ، وفي ذهن كل منهم فكرة تنتسب الى الغموض والوضوح ، معا . فكرة تشف كالحلم ، وتضيء . التقت عيونهم للحظة كثيفة ومركزة وكانت لغة العيون تعرب عن اتفاقهم . تفرقوا ، وشعر كل منهم ان موعدا ما ينتظرهم كي يلتقوا .

استيقظ أبو العبد ، وكانه يخرج من قاع بئر معتم . والعتمة أيضا كانت تحتوي حيز الخيمة الضيق ، ونمنع أصابعه المعروقة من التسلل الى علبة التبغ . راعه أن تكون الخيمة مقفرة ، ولا أحد ، والصمت بهذا الشمول ، فأدرك ان ثمة أمرا غامضا يحدث . نهض بتثاقل وكانه يؤدي دورا مسرحيا أقحم عليه . أخذ يبحث بأمل ضئيل عن المصباح ، فاصطدم بتنكة الكاز ، وسقط على الارضية الترابية الصلبة . حدس من جديد ان في الامر شيئا لا يبعث على الارتياح .

مذ خرج في الصباح الى شغله وهو يستشعر مرارة في فمه وانه مكدر وغير طبيعي . أين أم العبد ، ألم تشبع من الكلام ؟ وخديجة ما الذي جعلها تتأخر الى هذا الوقت ، لا بد انها تلازم أمها . أما حسن فهو غير قابل للانضباط وهذه عادته . لم يحصل أن تركوه وحيدا هكذا ، فماذا في الامر ؟ أطل من أعماقه حزن ملثم غامض الجذور ، فاستيقظت في خاطره توقعات سوداء . نهض هذه المرة كي يخرج ويسأل الجيران . انتابته دهشة عارمة عندما ألفى المخيم هادئا ونائما ، وأيقن ان الوقت متأخر فازدادت مخاوفه .

ـ أبو يوسف .. يا أبو يوسف .

نهض هذا من فراشه منزعجا . تبادلا باقتضاب تحية المساء . سأل أبو يوسف :

ـ لماذا حرمتنا منك الليلة ؟

ـ لكن يا حاج ، أم العبد وخديجة ، أين ؟

ـ ايه ، صحيح . رأيتهما تبحثان عن حسن . قيل انه ـ أنا لم أره ـ انه كان يتمشى في الخيم باللباس المبرقع وسلاحه على كتفه ، ثم نزل الى المدينة ، وأصرتا على اللحاق به كانه طفل صغير ، لماذا تستغرب يا أبو العبد ، ابني معهم .

لكن « أبو العبد » استغرب . تذكر التو بكره العبد الذي أجهزت رصاصة طائشة على شبابه ، وكم مضى من العمر يتحسر عليه . انتابه اليه شوق غامر أشبه بالانخطاف ، ثم اذا بمعالم بيت دجن تلوح له ، وكانه في حضرة حلم . أرضه الطيبة في بيت دجن البعيدة . وكاد الرجل يبكي ، لكنه انسحب الى خيمته . لم يتضايق هذه المرة من سطوة الظلام ، فقد كان منقطعا عن المكان ومنكفئا الى داخله . نسي أن يسأل كم الساعة الآن ، غير انه كان متأكدا انه أطال في النوم ، وان ساعة الفجر لا بد قريبة ..

محمود الريماوي

الشاعر عبد الوهاب البياتي

في كتابه الجديد

تجربتي الشعرية

أول دراسة ذاتية يكتبها شاعر عربي رائد عن تجربته مع الشعر والحياة .

صدر هذا الشهر عن :
منشورات نزار قباني
ص.ب ٦٢٥٠ بيروت